

٣- محمد بك المويلحي

للاستاذ عبد العزيز البشري



الرحوم محمد بك المويلحي

نقطة في نشأته ودراسه

لقد عرفت مما قصصنا عليك أن هذا الرجل وإن نشأ عظامياً بما لبثته من الفنى والحسب، فقد نشأ عصامياً بما حصل من العلم والأدب. اتكأ على نفسه فأكب على الكتب دأثرها وجفوتها. ولعل أكثر نظره إما كان في كتب التاريخ والسير، ولو قد وقع لك صدر من آثار أبيه وآثاره لرأيت لها في مواطن الاستشهاد فطنة عجيبة، إلى دقائق دقيقة، مما يملق بزوايا التاريخ أو بجواشيه، قل أن يظن لها أكثر القارئ، وقل أن يحفل بها أو يملقها من يظن اليها من الدارسين. على أنها قد يكون لها في دواعي الكلام مقام عظيم، وكثيراً ما ترفعه درجات على درجات

كذلك اعتمد محمد في تحصيل العلم والآداب على الاتصال بصدور أهل الفضل يصاحبهم ويلازمهم، ويلزمهم بالسم، ويشهد محاضراتهم ومقاولاتهم. كذلك داخل رجال الحكم وأصحاب السياسة في مصر وفي الآستانة فمرف أساليبهم، وأدرك مذاقهم. ولم ينكسر على هذا وهذا؛ بل لقد صاحب كذلك

إجمل جهلك يا صاحبي في هذه الشهوات الخسيسة؛ فإنها العلم الخبيث الذي يفسد الروح، واعرف كيف تقول لروحك الطفلة في ملائكتها حين تساورك الشهوات: « هذا ليس لي؛ هذا لا ينبغي لي »

إن الروح الكبيرة هي في حقيقتها الطفل الملائكي وعلم خسائس الحياة يجعل للانسان في كل خبيسة نفساً تتعلق بها، فيكون السكين بين نفسيين وثلاث وأربع، إلى ثلاثين وأربعين، كأنهن يتنازعن فيضيع بهذه الكثرة، ويصبح بعضه بلاه على بعض، وتشغله الفضول، فيعود لها كالزبلة لما ألتى فيها، ويحقق في نفسه الطبيعية حس الفرح بجمال الطبيعة، كما يحقق في الزبلة معنى النظافة ومعنى الحس بها هذه الأنفس الخيالية في هذا الانسان المتكود، هي الأرواح التي يتفخها في مصائبه، فتجعلها مصائب حية تعيش في وجوده وتعمل فيه أعمالها، ولولاها لماتت في نفسه مطاعم كثيرة، فانت له مصائب كثيرة

انظر بالروح الشاعرة، تر الكون كله في سمائه وأرضه انسجاماً واحداً ليس فيه إلا الجمال والسحر وفتنة الطرب، وانظر بالعقل العالم، فلن ترى في الكون كله إلا مواد علم الطبيعة والكيمياء

ومدى الروح جمال الكون كله؛ ومدى العقل قطعة من حجر، أو عظمة من حيوان، أو نسيجة من نبات، أو فلذة من معدن، وما أشبهها

إجمل جهلك يا صاحبي؛ ففي كل حسن غزل، بشرط ألا تكون العاشق الطامع، وإلا أصبت في كل حسن هماً ومشغلة...!

قلت لنفسي: إلى الآن لم أقل لك ذلك المعنى الذي كتبتك عنك

وقالت لي النفس: وإلى الآن لم أقل لك إلا جواب ذلك الذي كتبتك عنى...

عبد العزيز البشري

طنطا

والرياضة . وأصدر صحيفة «مصبح الشرق» . وقد مرت بك صفتها في أول مقال . ثم طواها كما ذكرت لك ، واعتكف في داره لا يلى عملاً عاماً . حتى عيّن في سنة ١٩١٠ رئيساً لقسم الإدارة والسكرتارية في ديوان (عموم) الأوقاف ، وأزيل عن هذا المنصب بعد إذ قامت الحرب العظمى ، وتبدلت الحال ، لأسباب لا يحتمل ذكرها هذا المقال . فعاد إلى اعتكافه لا يتدلى إلى البلد إلا في قضاء حاجة ، أو مساهرة من يستطيع مجالستهم من الصحاب ، وظل كذلك إلى الشكاة التي مات فيها ، عليه رحمة الله . وكانت وفاته في يوم ١٠ مارس سنة ١٩٣٠

أهملوه المولى محمد وعادته :

قبل أن أطرق هذا الباب من سيرة الرجل يحسن بي أن أقرر أنه لم يكن على حظ من نطاقة اللسان ؛ بل لقد كان يعتره في بعض الحديث ما يشبه الخبث ؛ بل لقد تمتاز الكلمة في حلقه فلا يستطيع أن يلفظها إلا عطف عنقه ، كأنما يمرّى لها مجرى الصوت ومن أم ما بلغت النظر في خلاله أنه كان أقل خلق الله تأثراً بما يفر المرء من متعارف الناس ومصطلحهم في عاداتهم وتقاليدهم وسائر أساليبهم ؛ بل لقد كان له نظره الخاص في الأشياء ، وكان له حكمة الخاص عليها ، وهو إنما يأخذ نفسه بما يصح عنده من هذه الأحكام ، لا يبالي أحداً ، ولا يتأثر ، كما قلت ، بأثر خارجي ، ولو كان مما انمقد عليه اجتماع الناس ، وإذا كنت قد نفثته (بالفيلسوف) فأنما أعني هذه الصفة فيه . فاني لم أكدر أرى رجلاً لا يملك الملازمة بين رأيه في أسباب الحياة ، وشدة تحريمه أخذ النفس بأحكام هذا الرأي ، كما بان لي من خلة هذا الرجل بحكم ملابسته له السنين الطوال .

ولقد كانت له آراء في كثير من الأشياء لقد تبدو غريبة حتى يُظن أن في طريقة تفكيره شيئاً من الشذوذ والانحراف . وما أحيل هذا إلا على أنه لا يخف لمطوعة الناس في كل ما يستوى من الأدراك للناس ؛

ثم لقد كان رجلاً يرحح عقله ذكاه . وإنه ليجتاج في تفهم دقائق المعاني إلى شيء من الطاولة والتدبير . على أنها بعيد هذا تتسقى لذهنه مدركة ناجحة ، لا كما يخطر لحداد الذكاه (خطرة البرق بدا ثم اضمحل) !

أهل الظرف وأحباب البداهة ، وشاركهم في أسفارهم ، ودخل معهم في مناقلاتهم ومنادراتهم

وعالج البيان من صدر شبابه ، يصف له أبوه أقول ، ويقرب له مصطفى اللفظ ، ويأخذه بتجويد الفصح ، ويهديه إلى مضارب العلم . وسرعان ما نضج وأدرك ، وجرى قلبه بالبيان حلواً متيناً نيراً ، ووقع من فنون المعاني على أجليها وأكرمها . وسهج نفسه أسلوباً خاصاً به إن تأثر فيه بأحد ، فبالأسبقين من أعلام الكتاب فكان منه بذلك كله الأديب التام

واحترف صنعة القلم ، واشترك في تحرير جريدة المقطم بضع سنين على ما أظن . ولا أحبه قد شارك أباه في تحرير الصحف التي أخرجها في عهد الرحوم الخديو إسماعيل ، فتاريخها إن لم يكن أبعد من مولده ، فهو أبعد في أرجح الظن ، من حمله القلم والله أعلم !

وكان أبوه ، رحمه الله عليهما ، كثير الاختلاف إلى الآستانة متوًى الخلافة يومئذ ، فكان يصحبه في بعض هذه الرحلات ، وقلد إبراهيم بك في زمن السلطان عبد الحميد منصب المستشار لوزارة المعارف العثمانية ، وأقام فيه بضع سنين ، لعلها تسع إن صدقتي ذا كرتي ؛ ففضى محمد في الآستانة هذه السنين

ولما اعتزل الرحوم إسماعيل باشا إمارة مصر ، وآثر المقام في إيطاليا دعا إبراهيم بك ليؤنسه ويسامره ، ويخدمه في بعض مساعيه عند السلطان . فحمل معه ولده وأقاما في نابولي في قصر إسماعيل بضع سنين . ومن هنا تدرك كيف حذق محمد لغة التليان ولقد طاف محمد كثيراً ببلاد أوروبا ، إما موفداً من أبيه في بعض مساعيه ، وإمامتفرجاً منزهاً . وله في وصف مؤتمر باريس سنة ١٩٠٠ مقال بارع بديع ، كانت ينشر منجاً في مصباح الشرق^(١) وطاف كذلك بالبلاد السورية ، وزار المدينة المنورة ووصف القبر الشريف أحسن وصف وأبدعه ، ونشره في جريدة المؤيد^(٢)

واستقر المولى إسماعيل أخيراً في مصر ما يريحها إلا للزهة

(١) ألحق هنا الوصف بكتاب (حديث عيسى بن هشام) في آخر طباعته
(٢) وكان قد دعي إلى هذه الزيارة السكرعة مع صاحب المؤيد وكثيرين من أهل الفضل احتفالاً بانتتاح سكة الحديد الحجازية .

وكان رجلاً طيباً ، كأن طول تمرينه في النقد الكتابي قد طبعه على النقد في كل شيء ، وأنضج ملكته فيه ، فلا تراه يتخذ شيئاً في أي سبب من أسبابه إلا إذا خُص وتقدّر وتُخَيّر ، فما يكاد يُجَدِّع على أمر أبداً !

وهو ، بعد ، يحبّ النكتة البارة ويحتفل لها . على أنه إذا وصل المجلس بينه وبين أصحابه ممن حذقوا هذا الفن وبرعوا فيه من أمثال الرحومين السيد محمد البايلى ، ومحمد بك رشاد ، ومحمد بك رأفت ، لم يكن في الغالب هو النشئ للنكتة والمبتكر لها . ولكنها ما تكاد تسقط من فم غيره حتى يتولّاها بالترجيح والمطّ والتوليد والتلوين ، فما ينتهي أحد في ذاك منهاه

ومهما يكن من شيء فإن هذا الرجل كان من أوسع الناس علماً بطباع المصريين وأخلاقهم وعاداتهم ومداخل أمورهم ، على اختلاف طبقاتهم وتفاوت مراتبهم . فإذا تحدّث في هذا الباب فحديث التمكن الخبير

ومما ينبغي أن يذكر له ، ويختم به هذا الحديث ، أنه رجل لم يجد الاحياء ولا الزينج الى قلبه السبيل ؛ بل لقد كان مؤمناً شديداً بالايمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، والحمد لله رب العالمين . فان رأيت منه شيئاً من الانحراف في تخرج مسألة جزئية من مسائل الدين ، فأرجل الأمر على مجرد الخطأ في الاجتهاد والتأويل رحمه الله رحمة واسعة ، وفقر لنا وله ، وأحسن جزاءه في دار الجزاء ما

عبر العزيز البشرى

كذلك كان مما بلغت النظر في شأن الوليحي أنه شديد الاستيحاء من الناس ، فلا تراه يستريح بالحديث إلى من لا يعرف منهم ولم يألّف . ولقد يكون في مجلس يجمع الصفوة من خلانه ، ومعهم رجل لا يعرفه ، فإذا هو بفشر وينقبض حتى يكاد (يوحش في المجلس) . وعلى هذا لقد كان يكره ، بالطبع ، الدخول في زحمة الناس ، والترأى للجاهيز ، وما إلى هذا من مقتضيات الظهور

ومن أجل صفات هذا الرجل حدة العزم ، وقوة الصبر ، وشدة الحمل على النفس . فما إن رأيته يوماً شاكياً ولا مظهرأ للبرم بالحياة مهما كثرته تصرف الحياة . ولقد يكثر المال في يده فيسقطها ، الى ما يقرب من السرف في النفقة في حاجاته ، واصابة ما يحلّ له من المتع والذائد . ولقد يرقّ المال في يده ، فيلزم داره الشهرين والثلاثة لا يرحها أبداً ، متجماً في عامة شأنه بما عنده مهما يبلغ من القلة ، لا يسأل أحداً عوناً ولا يطالع الصديق بحاجة كذلك كان من أجل صفاته الصدق في القول ، ولقد عاشته ما عاشته ، فما أذكر والذي نفسى بيده ، أنني أحصيت عليه كذبة واحدة قط ، ولا من ذلك النوع الذي يتورط فيه الرء في مصانعة الناس ومجاملتهم ، فان ألحت التقاليد عليه في شيء من هذا سكت أو ورى . ولقد أذكر أنه قابل ولّى الأمر الأسبق في يوم من أيام رمضان ، فسأله أصامم أنت يا محمد بك ؟ فأجاب من فوره (والله ما أ كذبش عليك يا أفندينا) ! فضحك ملء شديقه من هذا الجواب

ثم اقد كانت ، رحمه الله ، شديدة العناية بالنظافة في جميع ملابساته ، متأنقاً عظيم التأنق في كل شيء ، يحب الزهر ويكلف به ، ويحسن تأليفه وتصنيفه ، ولا يسّ إلا أركى المطر وأغلاء وكان شديد الاحتفال للطعام ، مبالغاً في التأنق فيه . ولربما طالع طاهيه المرات المدينة في مطبخه ، يتقدم اليه بأن يفعل بهذا اللون كذا وكذا ، ويصنع يتلك الصفحة كيت وكيت ، وهو بهذا حق خبير . فإذا قُرب إليه طعامه اجتمع له اجمع شهوران يلتذ به أتم التذاذ . على أنه مع هذا كان حسن الأكل ، يلتزم في تناوله ومضغه وإزلاقه أعلى الآداب

مجموعات الرسالة

نمن مجموعة السنة الأولى مجلدة ٣٥ عدا أجرة البريد

نمن مجموعة السنة الثانية (المجلد الأول) ٣٥ عدا أجرة البريد

ونمن كل منهما خارج القطر ٥٠